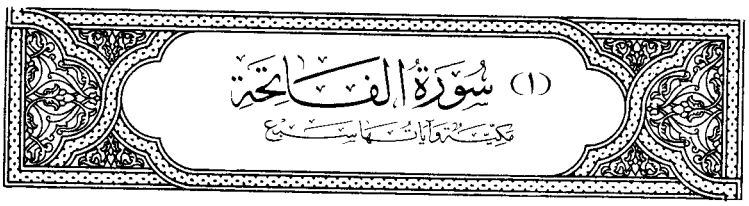

(١) سورة الفاتحة

مكية وآياتها سبع

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

تفسير الاستعاذة المعنى : أستجير بجناب الله وأعتصم به من شر الشيطان العاتي المتمرد ، أن يضرني في ديني أو دنياي ، أو يصدني عن فعل ما أُمرت به ، وأحتمي بالخالق السميع العليم من همزه ولمزه ووساوسه ، فإن الشيطان لا يكفه عن الإنسان إلا الله رب العالمين . . عن النبي ﷺ أنه كان إذا قام من الليل ، استفتح صلاته بالتكبير ثم يقول : (أعوذ بالله السميع العليم ، من الشيطان الرجيم ، من همزه ونفخه ونفثه)[١] .

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير البسملة: المعنى : أبدأ بتسمية الله وذكره قبل كل شيء ، مستعيناً به جلَّ وعلا في جميع أموري ، طالباً منه وحده العون ، فإنه الرب المعبود ذو الفضل والجود ، واسع الرحمة كثير التفضل والإحسان ، الذي وسعت رحمته كل شيء ، وعمَّ فضله جميع الأنام .

تنبيه : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ افتتح الله بهذه الآية سورة الفاتحة وكل سورة من سور القرآن ـ ما عدا سورة التوبة ـ ليرشد المسلمين إلى أن يبدءوا أعمالهم وأقوالهم باسم الله الرحمن الرحيم ، التماساً لمعونته وتوفيقه ، ومخالفةً للوثنيّين الذين يبدءون أعمالهم بأسماء آلهتهم أو طواغيتهم فيقولون : باسم اللات ، أو باسم العزى ، أو باسم الشعب ، أو باسم هبل .

قال الطبري : « إن الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه ، أدَّب نبيّه محمداً ﷺ بتعليمه ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله ، وجعل ذلك لجميع خلقه سنّةً يستنّون بها ، وسبيلاً يتبعونه عليها فقول القائل : بسم الله الرحمن الرحيم إذا افتتح تالياً سورة ينبىء عن أن مراده : أقرأ بسم الله ، وكذلك سائر الأفعال »[٢] .

---

(١) أخرجه أصحاب السنن . (٢) جامع البيان للطبري .

تفسير سورة الفاتحة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

بين يدي السورة :

هذه السورة الكريمة مكية وآياتها سبعٌ بالإجماع ، وتسمى « الفاتحة » لافتتاح الكتاب العزيز بها حيث إنها أول القرآن في الترتيب لا في النزول ، وهي - على قصرها ووجازتها - قد حوت معاني القرآن العظيم ، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال ، فهي تتناول أصول الدين وفروعه ، تتناول العقيدة ، والعبادة ، والتشريع ، والاعتقاد باليوم الآخر ، والإيمان بصفات الله الحسنى ، وإفراده بالعبادة والاستعانة والدعاء ، والتوجه إليه جلَّ وعلا بطلب الهداية إلى الدين الحق والصراط المستقيم ، والتضرع إليه بالتثبيت على الإيمان ونهج سبيل الصالحين ، وتجنب طريق المغضوب عليهم والضالين ، وفيها الاخبار عن قصص الأمم السابقين ، والاطلاع على معارج السعداء ومنازل الأشقياء ، وفيها التعبد بأمر الله سبحانه ونهيه ، إلى غير ما هنالك من مقاصد وأغراض وأهداف ، فهي كالأم بالنسبة لبقية السور الكريمة ولهذا تسمّى « أم الكتاب » لأنها جمعت مقاصده الأساسية .

فضلها : أ - روى الإمام أحمد في المسند أن « أبيَّ بن كعب » قرأ على النبي ﷺ أم القرآن فقال رسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده ما أُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها ، هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه) فهذا الحديث الشريف يشير إلى قوله تعالى في سورة الحجر ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ .

ب - وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلَّى : (لأعلمنَّك سورة هي أعظم السور في القرآن : الحمد لله رب العالمين ، هي السبعُ المثاني والقُرآن العظيم الذي أوتيتُه) .

التسمية : تسمى « الفاتحة ، وأم الكتاب ، والسبع المثاني ، والشافية ، والوافية ، والكافية ، والأساس ، والحمد » وقد عدّدها العلامة القرطبي وذكر أن لهذه السورة اثني عشر إسماً .

اللغة : ﴿الحمد﴾ الثناء بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل مقروناً بالمحبة وهو نقيض الذم وأعمُّ من الشكر ، لأن الشكر يكون مقابل النعمة بخلاف الحمد ﴿الله﴾ اسم علم للذات المقدسة لا يشاركه فيه غيره ، قال القرطبي : هذا الاسم ﴿الله﴾ أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها ، وهو اسم للموجود

الحق ، الجامع لصفات الإلهية ، المنعوت بنعوت الربوبية ، المنفرد بالوجود الحقيقي لا إله إلا هو سبحانه ﴿ربّ﴾ الربّ : مشتق من التربية وهي إصلاح شئون الغير ورعاية أمره قال الهروي : « يقال لمن قام بإصلاح شيء وإتمامه : قد ربَّه ومنه الربانيون لقيامهم بالكتب »[1] والربُّ يطلق على عدة معان وهي « المالك ، والمصلح ، والمعبود ، والسيد المطاع » ﴿العالمين﴾ العالم : اسم جنس لا واحد له من لفظه كالرهط ، وهو يشمل : الإنس والجن والملائكة والشياطين كذا قال الفراء ، وهو مشتق من العلامة لأن العالم علامة على وجود الخالق جل وعلا ﴿الرحمن الرحيم﴾ صفتان مشتقتان من الرحمة ، وقد روعي في كلٍ من ﴿الرحمن﴾ و﴿الرحيم﴾ معنى لم يراع في الآخر فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة لأن « فَعْلان » صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته ولا يلزم منه الدوام كغضبان وسكران ، والرحيم بمعنى دائم الرحمة لأن صيغة فعيل تستعمل في الصفات الدائمة ككريم وظريف فكأنه قيل : العظيم الرحمة الدائم الإحسان .[2]

قال الخطابي : الرحمن ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم ومصالحهم وعمَّت المؤمن والكافر ، والرحيم خاص بالمؤمن كما قال تعالى ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ ، ﴿الدين﴾ الجزاء ومنه الحديث (كما تدين تُدان) أي كما تفعل تجُزى ﴿نعبد﴾ قال الزمخشري : العبادة أقصى غاية الخضوع والتذلل ولذلك لم تستعمل إلا في الخضوع لله تعالى لأنه مولي أعظم النعم فكان حقيقاً بأقصى الخضوع[3] ﴿الصراط﴾ الطريق وأصله بالسين من الاسترواط بمعنى الابتلاع كأن الطريق يبتلع السالك قال الشاعر :

شحنّا أرضهم بالخيل حتى تركناهم أذلَّ من الصّراط

﴿المستقيم﴾ الذي لا عوج فيه ولا انحراف ﴿آمين﴾ أي استجب دعاءنا وهي ليست من القرآن الكريم إجماعاً .

التفسير : علمنا الباري جلّ وعلا كيف ينبغي أن نحمده ونقدسه ونثني عليه بما هو أهله فقال ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ أي قولوا يا عبادي إذا أردتم شكري وثنائي الحمد لله ، اشكروني على إحساني وجميلي إليكم ، فأنا الله ذو العظمة والمجد والسؤدد ، المتفرد بالخلق والإيجاد ، رب الإنس والجن والملائكة ، ورب السموات والأرضين ، فالثناء والشكر لله رب العالمين دون ما يُعبد من دونه ﴿الرحمن الرحيم﴾ أي الذي وسعت رحمته كل شيء ، وعمَّ فضله جميع الأنام ، بما أنعم على عباده من الخلق والرزق والهداية إلى سعادة الدارين ، فهو الرب الجليل عظيم الرحمة دائم الإحسان ﴿مالك يوم الدين﴾ أي هو سبحانه المالك للجزاء والحساب ، المتصرف في يوم الدين تصرّف المالك في ملكه ﴿يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذٍ لله﴾ ﴿إيَّاكَ نعبد وإيَّاك نستعين﴾ أي نخصُّك يا ألله بالعبادة ، ونخصك بطلب الإعانة ، فلا نعبد أحداً سواك ، لك وحدك نذلُّ ونخضع ونستكين ونخشع ، وإيَّاك ربنا نستعين على طاعتك ومرضاتك ، فإنك المستحق لكل إجلال وتعظيم ، ولا يملك القدرة على عوننا أحدٌ سواك ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ أي دلنا وأرشدنا يا رب إلى طريقك الحق ودينك المستقيم ، وثبتنا على الإسلام الذي

---

(١) القرطبي ١/ ١٣٣ . (٢) كشف المعاني تفسير ابن جماعة . (٣) الكشاف ١/ ١١ .

بعثت به أنبياءك ورسلك ، وأرسلت به خاتم المرسلين ، واجعلنا ممن سلك طريق المقربين ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ أي طريق من تفضّلت عليهم بالجود والإنعام ، من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، وَحَسُنَ أولئك رفيقاً ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ أي لا تجعلنا يا أالله من زمرة أعدائك الحائدين عن الصراط المستقيم ، السالكين غير المنهج القويم ، من اليهود المغضوب عليهم أو النصارى الضالين ، الذين ضلوا عن شريعتك القدسية ، فاستحقوا الغضب واللعنة الأبدية . اللهم آمين .

البلاغة : ﴿الحمد لله﴾ الجملة خبرية لفظاً إنشائية معنىً أي قولوا « الحمد لله » وهي مفيدة لقصر الحمد عليه تعالى كقولهم : الكرم في العرب . ٢ ـ ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ فيه إلتفات من الغيبة إلى الخطاب ولو جرى الكلام على الأصل لقال : إيّاه نعبد ، وتقديم المفعول يفيد القصر أي لا نعبد سواك كما في قوله ﴿وإيّاي فارهبون﴾ ٣ ـ قال في البحر المحيط : وفي هذه السورة الكريمة من أنواع الفصاحة والبلاغة أنواع :

الأول : حسن الافتتاح وبراعة المطلع .

الثاني : المبالغة في الثناء لإفادة « أل » الاستغراق

الثالث : تلوين الخطاب إذ صيغته الخبر ومعناه الأمر أي قولوا الحمد لله .

الرابع : الاختصاص في قوله ﴿لّله﴾ .

الخامس : الحذف كحذف صراط من قوله ﴿غير المغضوب عليهم﴾ تقديره غير صراط المغضوب عليهم وغير صراط الضالين .

السادس : التقديم والتأخير في ﴿إيّاك نعبد﴾ .

السابع : التصريح بعد الإبهام ﴿الصراط المستقيم﴾ ثم فسره بقوله ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ .

الثامن : الالتفات في ﴿إياك نعبد وإيّاك نستعين﴾ .

التاسع : طلب الشيء والمراد به دوامه واستمراره في ﴿إهدنا الصراط﴾ أي ثبتنا عليه .

العاشر : السجع المتوازي في قوله ﴿الرحمن الرحيم * الصراط المستقيم﴾ وقوله ﴿نستعين * * الضّالين﴾ .[1]

---

(١) البحر المحيط لأبي حيان ١/ ٣١ .

الفوائد : الأولى : الفرق بين ﴿الله﴾ و﴿الإله﴾ أن الأول اسم علم للذات المقدسة ذات الباري جل وعلا ومعناه المعبود بحق والثاني معناه المعبود بحقٍ أو باطل فهو اسم يطلق على الله تعالى وعلى غيره .

الثانية : وردت الصيغة بلفظ الجمع « نعبد ونستعين » ولم يقل « إياك أعبد وإياك أستعين » بصيغة المفرد وذلك للإعتراف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك فكأنه يقول : أنا يا رب العبد الحقير الذليل ، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردي ، بل أنضم إلى سلك المؤمنين الموحّدين فتقبل دعائي في زمرتهم فنحن جميعاً نعبدك ونستعين بك .

الثالثة : نسبَ النعمة إلى الله عز وجل ﴿أنعمت عليهم﴾ ولم ينسب إليه الإضلال والغضب فلم يقل : غضبتَ عليهم أو الذين أضللتَهم ،وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله تعالى ، فالشر لا ينسب إلى الله تعالى أدباً وإن كان منه تقديراً « الخير كله بيديك والشر لا ينسب إليك » .

خاتمة
في بيان الأسرار القدسية في فاتحة الكتاب العزيز

يقول شهيد الإسلام الشيخ حسن البنا في رسالته القيمة « مقدمة في التفسير » ما نصه : « لا شك أن من تدبَّر الفاتحة الكريمة رأى من غزارة المعاني وجمالها ، وروعة التناسب وجلاله ما يأخذ بلبه ، ويضيء جوانب قلبه ، فهو يبتدىء ذاكراً تالياً متيمناً باسم الله ، الموصوف بالرحمة التي تظهر آثار رحمته متجددة في كل شيء ، فإذا استشعر هذا المعنى ووقر في نفسه انطلق لسانه بحمد هذا الإله ﴿الرحمن الرحيم﴾ وذكّره الحمد بعظيم نعمه وكريم فضله ، وجميل آلائه البادية في تربيته للعوالم جميعاً ، فأجال بصيرته في هذا المحيط الذي لا ساحل له ، ثمّ تذكر من جديد أن هذه النعم الجزيلة والتربية الجليلة ، ليست عن رغبةٍ ولا رهبة ، ولكنها عن تفضل ورحمة ، فنطق لسانه مرة ثانية بـ ﴿الرحمن الرحيم﴾ ومن كمال هذا الإله العظيم أن يقرن الرحمن بـ « العدل » ويذكّر بالحساب بعد الفضل فهو مع رحمته السابغة المتجددة سيُدين عباده ويحاسب خلقه يوم الدين ﴿يوم لا تملك نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمر يومئذٍ لله﴾ فتربيته لخلقه قائمة على الترغيب بالرحمة ، والترهيب بالعدالة والحساب﴿مالك يوم الدين﴾ وإذا كان الأمر كذلك فقد أصبح العبد مكلفاً بتحري الخير ، والبحث عن وسائل النجاة ، وهو في هذا أشد ما يكون حاجة إلى من يهديه سواء السبيل ، ويرشده إلى الصراط المستقيم ، وليس أولى به في ذلك من خالقه ومولاه فليلجأ إليه وليعتمد عليه وليخاطبه بقوله ﴿إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين﴾ وليسأله الهداية من فضله إلى الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم بمعرفة الحق واتباعه ، غير المغضوب عليهم بالسلب بعد العطاء ، والنكوص بعد الاهتداء ، وغير الضالين التائهين ، الذي يضلون عن الحق أو يريدون الوصول إليه فلا يوفقون للعثور عليه ، آمين . ولا جرم أن « آمين » براعة مقطع في غاية الجمال والحسن ، وأي شيء أولى بهذه البراعة من فاتحة

الكتاب ، والتوجه إلى الله بالدعاء ؟ فهل رأيت تناسقاً أدق ، أو ارتباطاً أوثق ، مما تراه بين معاني هذه الآية الكريمة ؟ وتذكر وأنت تهيم في أودية هذا الجمال ما يرويه رسول الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسي (قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعبدي ماسأل . .) الحديث وأدم هذا التدبير والإنعام ، واجتهد أن تقرأ في الصلاة وغيرها على مكث وتمهّل ، وخشوع وتذلّل ، وأن تقف على رؤوس الآيات ، وتعطي التلاوة حقها من التجويد أو النغمات ، من غير تكلف ولا تطريب ، واشتغال بالألفاظ عن المعاني ، فإن ذلك يعين على الفهم ، ويثير ما غاض من شآبيب الدمع ، وما نفع القلب شيء أفضلُ من تلاوة في تدبرٍ وخشوعٍ »[1] .

« انتهى تفسير سورة الفاتحة »

* * *

(١) مقدمة في التفسير ص ٥٩

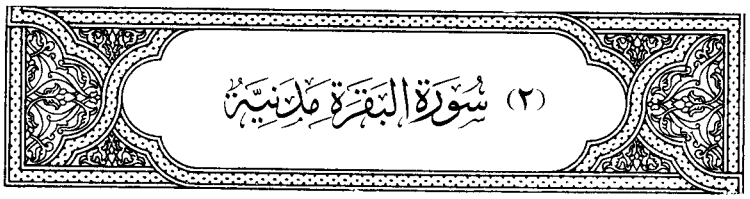

سورة البقرة جميعها مدنية بلا خلاف ، وهي من أوائل ما نزل ، وآياتها مائتان وثمانون وسبع آيات

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة البقرة من أطول سور القرآن على الإطلاق ، وهي من السور المدنية التي تُعنى بجانب التشريع ، شأنها كشأن سائر السور المدنية ، التي تعالج النظم والقوانين التشريعية التي يحتاج إليها المسلمون في حياتهم الاجتماعية .

* اشتملت هذه السورة الكريمة على معظم الأحكام التشريعية : في العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، وفي أمور الزواج ، والطلاق ، والعدة ، وغيرها من الأحكام الشرعية .

* وقد تناولت الآيات في البدء الحديث عن صفات المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين ، فوضّحت حقيقة الإيمان ، وحقيقة الكفر والنفاق ، للمقارنة بين أهل السعادة وأهل الشقاء .

* ثم تحدثت عن بدء الخليقة فذكرت قصة أبي البشر « آدم » عليه السلام ، وما جرى عند تكوينه من الأحداث والمفاجآت العجيبة التي تدل على تكريم الله جل وعلا للنوع البشري .

* ثم تناولت السورة الحديث بالإسهاب عن أهل الكتاب ، وبوجه خاص بني إسرائيل « اليهود » لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة المنورة ، فنبهت المؤمنين إلى خبثهم ومكرهم ، وما تنطوي عليه نفوسهم الشريرة من اللؤم والغدر والخيانة ، ونقض العهود والمواثيق ، إلى غير ما هنالك من القبائح والجرائم التي ارتكبها هؤلاء المفسدون ، مما يوضح عظيم خطرهم ، وكبير ضررهم ، وقد تناول الحديث عنهم ما يزيد على الثلث من السورة الكريمة ، بدءاً من قوله تعالى ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ﴾ . إلى قوله تعالى ﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ رَبُّه بكلماتٍ فأتمهنَّ ﴾ .

* وأما بقية السورة الكريمة فقد تناولت جانب التشريع ، لأن المسلمين كانوا في بداية تكوين « الدولة الإسلامية » وهم في أمسّ الحاجة إلى المنهاج الرباني ، والتشريع السماوي ، الذي يسيرون عليه في حياتهم سواء في العبادات أو المعاملات ، ولذا فإن جماع السورة يتناول الجانب التشريعي ، وهو باختصار كما يلي :

« أحكام الصوم مفصلة بعض التفصيل ، أحكام الحج والعمرة ، أحكام الجهاد في سبيل الله ، شئون الأسرة وما يتعلق بها من الزواج ، والطلاق ، والرضاع ، والعدة ، تحريم نكاح المشركات ، والتحذير من معاشرة النساء في حالة الحيض إلى غير ما هنالك من أحكام تتعلق بالأسرة ، لأنها النواة الأولى للمجتمع الأكبر» .

* ثم تحدثت السورة الكريمة عن « جريمة الربا » التي تهدّد كيان المجتمع وتقوّض بنيانه ، وحملت حملة عنيفة شديدة على المرابين ، بإعلان الحرب السافرة من الله ورسوله على كل من يتعامل بالربا أو يقدم عليه ﴿يا أيها الذين آمنو اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تُبْتُم فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلمون ولا تُظْلمون﴾ .

* وأعقبت آيات الربا بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب ، الذي يجازى فيه الإنسان على عمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفسٍ ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ وهو آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وآخر وحي تنزَّل من السماء إلى الأرض ، وبنزول هذه الآية انقطع الوحي ، وانتقل الرسول ﷺ إلى جوار ربه ، بعد أن أدى الرسالة وبلَّغ الأمانة .

* وختمت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى التوبة والإنابة ، والتضرع إلى الله جلَّ وعلا برفع الأغلال والآصار ، وطلب النصرة على الكفار ، والدعاء لما فيه سعادة الدارين ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ وهكذا بدأت السورة بأوصاف المؤمنين ، وختمت بدعاء المؤمنين ليتناسق البدء مع الختام ، ويلتئم شمل السورة أفضل التئام ! !

التسمية : سميت السورة الكريمة « سورة البقرة » إحياءً لذكرى تلك المعجزة الباهرة ، التي ظهرت في زمن موسى الكليم ، حيث قُتل شخص من بني إسرائيل ولم يعرفوا قاتله ، فعرضوا الأمر على موسى لعله يعرف القاتل ، فأوحى الله تعالى إليه أن يأمرهم بذبح بقرة ، وأن يضربوا الميت بجزءٍ منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل ، وتكون برهاناً على قدرة الله جل وعلا في إحياء الخلق بعد الموت ، وستأتي القصة مفصلة في موضعها إن شاء الله .

فضلها : عن رسول الله ﷺ أنه قال (لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة) أخرجه مسلم والترمذي . وقال ﷺ : (اقرءوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة) يعني السحرة . رواه مسلم في صحيحه .

قال الله تعالى ﴿الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه . . إلى . . وأولئك هم المفلحون﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٥).

اللغة : ﴿ريب﴾ الرَّيْبُ : الشك وعدم الطمأنينة يقال : ارتاب ، وأمرٌ مريب إذا كان فيه شك وريبة **قال الزمخشري** : الريبُ مصدر رَابَه إذا أحدث له الريبة وهي قلق النفس واضطرابها ، ومنه

ريب الزّمان لنوائبه[١] ﴿المتقين﴾ أصل التقوى مأخوذ من اتقاء المكروه بما تجعله حاجزاً بينك وبينه قال النابغة :

سَقَطَ النَّصيفُ ولَمْ تُرِد إسقاطَه ... فتناولَتْه واتَّقتْنا باليَدِ

فالمتقي هو الذي يقي نفسه مما يضرها ، وهو الذي يتقي عذاب الله بطاعته ، وجماعُ التقوى أن يمتثل العبد الأوامر ويجتنب النواهي ﴿الغيب﴾ ما غاب عن الحواس ، وكل شيء مستور فهو غيب كالجنة والنار ، والحشر والنشر قال الراغب : الغيبُ ما لا يقع تحت الحواس[٢] ﴿المفلحون﴾ الفلاح : الفوز والنجاح قال أبو عبيدة : كُلُّ من أصاب شيئاً من الخير فهو مفلح[٣] وقال البيضاوي : المفلح : الفائز بالمطلوب كأنه الذي انفتحت له وجوه الظفر[٤]، وأصل الفلح في اللغة : الشَّقُّ والقطع ومنه قولهم « إنَّ الحديد بالحديد يُفْلَح » أي يُشقُّ ، ولذلك سمي الفلاح لأنه يشق الأرض بالحراثة ﴿كفروا﴾ الكفر لغة : ستر النعمة ولهذا يسمى الكافر كافراً لأنه يجحد النعمة ويسترها ، ومنه قيل للزارع والليل كافر قال تعالى ﴿أَعْجَبَ الكفار نباتُه﴾ أي أعجب الزُّرَّاع ، وسُمي الليل كافراً لأنه يغطي كل شيء بسواده ﴿أنذرتهم﴾ الإنذار : الإعلام مع التخويف فإن خلا من التخويف فهو إعلام وإخبار لا إنذار ﴿ختم﴾ الختم : التغطية على الشيء والطبعُ عليه حتى لا يدخله شيء ، ومنه خَتْمُ الكتاب . ﴿غشاوة﴾ الغشاوة : الغطاء من غَشَّاه إذا غطاه ، ومنه الغاشية وهي القيامة لأنها تغشى الناسَ بأهوالها .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

التفسير : ابتدأت السورة الكريمة بذكر أوصاف المتقين ، وابتداء السورة بالحروف المقطعة ﴿الٓمٓ﴾ وتصديرها بهذه الحروف الهجائية يجذب أنظار المعرضين عن هذا القرآن ، إذ يطرق أسماعهم لأول وهلة ألفاظٌ غير مألوفة في تخاطبهم ، فينتبهوا إلى ما يُلقى إليهم من آيات بينات ، وفي هذه الحروف وأمثالها تنبيهٌ على « إعجاز القرآن » فإن هذا الكتاب منظومٌ من عين ما ينظمون منه كلامهم ، فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، فذلك أعظم برهان على إعجاز القرآن . يقول العلامة ابن كثير رحمه الله : إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور بياناً لإعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وهو قول جمع من المحققين ، وقد قرره الزمخشري في تفسيره الكشاف ونصره أتم نصر ، وإليه ذهب الإمام « ابن تيمية » ثم قال : ولهذا كلُّ سورة افتتحت بالحروف ،

(١) الكشاف ١/ ٢٧ (٢) مفردات القرآن للراغب (٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة/ ٢٩ (٤) البيضاوي ١/ ١٠

فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن ، وبيانُ إعجازه وعظمته مثل ﴿الٓمٓ * ذلك الكتاب﴾ ﴿المٓص * كتابٌ أُنزل إليك﴾ ﴿الٓمٓ * تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ ﴿حمٓ * والكتابُ المبين * إنَّا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين﴾ وغير ذلك من الآيات الدالة على إعجاز القرآن .[1] ثم قال تعالى ﴿ذلك الكتابُ لا ريب فيه﴾ أي هذا القرآن المنزل عليك يا محمد هو الكتابُ الذي لا يدانيه كتاب ﴿لا ريب فيه﴾ أي لا شك في أنه من عند الله لمن تفكر وتدبر ، أو ألقى السمع وهو شهيد ﴿هدى للمتقين﴾ أي هادٍ للمؤمنين المتقين ، الذين يتقون سخط الله بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، ويدفعون عذابه بطاعته ، قال ابن عباس : المتقون هم الذين يتقون الشرك ، ويعملون بطاعة الله ، وقال الحسن البصري : اتقوا ما حُرِّم عليهم ، وأدَّوْا ما افتُرض عليهم . . ثم بيَّن تعالى صفات هؤلاء المتقين فقال ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ أي يصدقون بما غاب عنهم ولم تدركه حواسهم من البعث ، والجنة ، والنار ، والصراط ، والحساب ، وغير ذلك من كل ما أخبر عنه القرآن أو النبي عليه الصلاة والسلام ﴿ويقيمون الصلاة﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها وأركانها ، وخشوعها وآدابها قال ابن عباس : إقامتُها : إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع[2] ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي ومن الذي أعطيناهم من الأموال ينفقون ويتصدقون في وجوه البر والإحسان ، والآية عامة تشمل الزكاة ، والصدقة ، وسائر النفقات ، وهذا اختيار ابن جرير ، وروي عن ابن عباس أن المراد بها زكاة الأموال ، قال ابن كثير : كثيراً ما يقرن تعالى بين الصلاة والإنفاق من الأموال ، لأن الصلاة حقُّ الله وهي مشتملة على توحيده وتمجيده والثناء عليه ، والإنْفاقُ هو الإحسان إلى المخلوقين وهو حق العبد ، فكلٌ من النفقات الواجبة ، والزكاة المفروضة داخل في الآية الكريمة[3] ﴿والذين يؤمنون بما أُنزل إليك﴾ أي يصدقون بكل ما جئت به عن الله تعالى ﴿وما أُنزل من قبلك﴾ أي وبما جاءت به الرسل من قبلك ، لا يفرّقون بين كتب الله ولا بين رسله ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ أي ويعتقدون اعتقاداً جازماً لا يلابسه شك أو ارتياب بالدار الآخرة التي تتلو الدنيا ، بما فيها من بعثٍ وجزاءٍ ، وجنةٍ ، ونار ، وحساب ، وميزان ، وإنما سميت الدار الآخرة لأنها بعد الدنيا ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ أي أولئك المتصفون بما تقدم من الصفات الجليلة ، على نور وبيان وبصيرة من الله ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية في جنات النعيم .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ ـ المجاز العقلي ﴿هدى للمتقين﴾ أسند الهداية للقرآن وهو من الإسناد للسبب ، والهادي في الحقيقة هو الله ربُّ العالمين ففيه مجاز عقلي .

٢ ـ الإشارة بالبعيد عن القريب ﴿ذلك الكتابُ﴾ للإيذان بعلو شأنه ، وبعد مرتبته في الكمال ، فنُزِّل بُعْد المرتبة منزلة البعد الحسي .

٣ ـ تكرير الإشارة ﴿أولئك على هدى﴾ ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ للعناية بشأن المتقين ، وجيء بالضمير ﴿هم﴾ ليفيد الحصر كأنه قال : هم المفلحون لا غيرهم .

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٢٧ . (٢) اقتبسنا التفسير من الطبري وابن كثير وتفسير الجلالين . (٣) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٣٠ .

٤ ـ التيئيس من إيمان الكفار ﴿سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾ فالجملة سيقت للتنبيه على غلوهم في الكفر والطغيان ، وعدم استعدادهم للإيمان ، ففيها تيئيس وإقناط من إيمانهم .

٥ ـ الاستعارة التصريحية اللطيفة ﴿ختم الله على قلوبهم﴾ شبّه قلوبهم لتأبّيها عن الحق ، وأسماعهم وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية ، بالوعاء المختوم عليه ، المسدود منافذه ، المغشّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه ، واستعار لفظ الختم والغشاوة لذلك بطريق الاستعارة التصريحية [1] .

* * *

المناسبة : لما ذكر تعالى صفاتِ المؤمنين في الآيات السابقة ، أعقبها بذكر صفات الكافرين ، ليظهر الفارق الواضح بين الصنفين ، على طريقة القرآن الكريم في المقارنة بين الأبرار والفجار ، والتمييز بين أهل السعادة وأهل الشقاوة « وبضدها تتميز الأشياء » .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

التفسير : ﴿إنَّ الذين كفروا﴾ أي إن الذين جحدوا بآيات الله وكذبوا برسالة محمد ﷺ ﴿سواءٌ عليهم﴾ أي يتساوى عندهم ﴿أأنْذرتَهم أَمْ لم تُنْذِرهم﴾ أي سواءٌ أَحذرتهم يا محمد من عذاب الله وخوفتهم منه أم لم تحذرهم ﴿لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون بما جئتهم به ، فلا تطمع في إيمانهم ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عن تكذيب قومه له . . ثم بيَّن تعالى العلة في سبب عدم الإيمان فقال ﴿ختم اللهُ على قلوبهم﴾ أي طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور ، ولا يُشرق فيها إيمان **قال المفسرون** : الختمُ التغطيةُ والطبعُ ، وذلك أن القلوب إذا كثرت عليها الذنوب طمست نور البصيرة فيها ، فلا يكون للإيمان إليها مسلكٌ ، ولا للكفر عنها مخلص كما قال تعالى ﴿بل طبع الله عليها بكفرهم﴾[2] ﴿وعلى سَمْعِهم وعلى أبصارهم غِشَاوَة﴾ أي وعلى أسماعهم وعلى أبصارهم غطاء ، فلا يبصرون هدى ، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون ، لأن أسماعهم وأبصارهم كأنها مغطَّاة بحجب كثيفة ، لذلك يرون الحقَّ فلا يتبعونه ، ويسمعونه فلا يعونه **قال أبو حيان** : شبَّه تعالى قلوبهم لتأبيها عن الحقّ ، وأسماعهم لإضرابها عن سماع داعي الفلاح ، وأبصارهم لامتناعها عن تلمح نور الهداية ، بالوعاء المختوم عليه ، المسدود منافذه ، المغطَّى بغشاء يمنع أن يصله ما يصلحه ، وذلك لأنها كانت ـ مع صحتها وقوة إدراكها ـ ممنوعة عن قبول الخير وسماعه ، وتلمح نوره ، وهذا بطريق الاستعارة[3] ﴿ولهم عذابٌ عظيم﴾ أي ولهم في الآخرة عذاب شديدٌ لا ينقطع ، بسبب كفرهم وإجرامهم وتكذيبهم بآيات الله .

* * *

(١) انظر تلخيص البيان للشريف الرضي ١ / ٣ والبحر المحيط لأبي حيان ١ / ٥١ . (٢) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير حول معنى الختم ففيه تحقيق وتفصيل جميل . (٣) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ١ / ٥١ .

قال الله تعالى ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر . . . إلى . . إن الله على كل شيء قدير﴾ من آية (٨) إلى نهاية آية (٢٠) .

المناسبة : لما ذكر تعالى في أول السورة صفات المؤمنين ، وأعقبها بذكر صفات الكافرين ، ذكر هنا « المنافقين » وهم الصنف الثالث ، الذين يُظهرون الإيمان ويُبطنون الكفر ، وأطنب بذكرهم في ثلاث عشرة آية لينبه إلى عظيم خطرهم ، وكبير ضررهم ، ثم عقَّب ذلك بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان ، وتوضيحاً لما تنطوي عليه نفوسهم من ظلمة الضلال والنفاق ، وما يئول إليه حالهم من الهلاك والدمار .

اللغة : ﴿يُخادعون﴾ الخِداع : المكر والاحتيال وإظهار خلاف الباطن ، وأصله الإخفاء ومنه سُمي الدهرُ خادعاً لما يخفي من غوائله ، وسُمي المِخْدع مَخْدعاً لتستر أصحاب المنزل فيه ﴿مَرَض﴾ المرض : السُّقْم وهو ضد الصحة وقد يكون حسياً كمرض الجسم ، أو معنوياً كمرض النفاق ومرض الحسد والرياء ، **قال ابن فارس** : المرضُ كلُّ ما خرج به الإنسان عن حد الصحة من علةٍ ، أو نفاق ، أو تقصير في أمر ﴿تفسدوا﴾ الفساد : العدول عن الاستقامة وهو ضد الصلاح ﴿السفهاء﴾ جمع سفيه وهو الجاهل ، الضعيف الرأي ، القليل المعرفة ، بمواضع المنافع والمضار ، وأصل السَّفه : الخِفَّة ، والسفيه : الخفيف العقل **قال علماء اللغة** : السَّفه خفةٌ وسخافة رأي يقتضيان نقصان العقل ، والحِلْمُ يقابله[1] ﴿طغيانهم﴾ **الطغيان** : مجاوزة الحد في كل شيء ومنه ﴿إنا لما طغى الماء﴾ أي ارتفع وعلا وجاوز حده ، والطاغية : الجبار العنيد ﴿يعمهون﴾ العَمَه : التحير والتردُّد في الشيء يقال : عَمِهَ يَعْمه فهو عَمِه **قال رؤبة** : « أعمى الهدى بالحائرين العُمَّه » **قال الفخر الرازي** : العَمَهُ مثل العمى ، إلا أن العَمَى عام في البصر والرأي ، والعَمَه في الرأي خاصة ، وهو التردد والتحير لا يدري أين يتوجه[2] ﴿اشتروا﴾ حقيقة الاشتراء : الاستبدال ، وأصله بذل الثمن لتحصيل الشيء المطلوب ، والعرب تقول لمن استبدل شيئاً بشيء اشتراه قال الشاعر :

فإن تزعميني كنتُ أجهلُ فيكم ... فإني اشتريتُ الحلمَ بعدكِ بالجهل

﴿صمٌ﴾ جمع أصم وهو الذي لا يسمع ﴿بُكْمٌ﴾ جمع أبكم وهو الأخرس الذي لا ينطق ﴿عميٌ﴾ جمع أعمى وهو الذي فقد بصره ﴿صيّب﴾ الصَيِّبُ : المطر الغزير مأخوذ من الصَّوْب وهو النزول بشدة قال الشاعر « سقتكِ روايا المُزْن حيثُ تصوب » ﴿الصواعق﴾ جمع صاعقة وهي نارٌ محرقة لا تمر بشيء إلا أتت عليه ، مشتقة من الصَّعْق وهو شدة الصوت ﴿السَّماء﴾ السماء في اللغة : كلُّ ما علاكَ فأظلَّك ، ومنه قيل لسقف البيت سماء ، ويسمى المطر سماءً لنزوله من السماء قال الشاعر :

إذا سقط السماء بأرضِ قومٍ ... رعيناه وإن كانوا غِضابا

---

(١) انظر تهذيب اللغة ، والصحاح ، والقاموس . (٢) التفسير الكبير للفخر الرازي ٢/ ٧١ .

﴿يخطف﴾ الخَطْفُ : الأخذ بسرعة ومنه ﴿إلا من خطِف الخطفة﴾ وسُمي الطير خُطّافاً لسرعته ، والخاطف الذي يأخذ الشيء بسرعة شديدة .

سَبَبُ النّزول : قال ابن عباس : نزلت هذه الآيات في منافقي أهل الكتاب منهم « عبد الله بن أُبي ابن سلول، ومعتب بن قشير ، والجد بن قيس » كانوا إذا لقوا المؤمنين يظهرون الإيمان والتصديق ويقولون : إنّا لنجد في كتابنا نعته وصفته[1] .

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾

التفسير : ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ أي ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم صدَّقنا بالله وبما أنزل على رسوله من الآيات البينات ﴿وباليومِ الآخر﴾ أي وصدَّقنا بالبعث والنشور ﴿وما هم بمؤمنين﴾ أي وما هم على الحقيقة بمصدقين ولا مؤمنين ، لأنهم يقولون ذلك قولاً دون اعتقاد ، وكلاماً دون تصديق **قال البيضاوي** : هذا هو القسم الثالث المذبذب بين القسمين ، وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، وهم أخبث الكفرة وأبغضهم إلى الله ، لأنّهم موَّهوا الكفر وخلطوا به خداعاً واستهزاءً ، ولذلك أطال في بيان خبثهم وجهلهم ، واستهزأ بهم وتهكَّم بأفعالهم ، وسجَّل عليهم الضلال والطغيان ، وضرب لهم الأمثال[2] ﴿يخادعون اللهَ والذين آمنوا﴾ أي يعملون عمل المخادِع بإظهار ما أظهروه من الإيمان مع إصرارهم على الكفر ، يعتقدون ـ بجهلهم ـ أنهم يخدعون الله بذلك ، وأن ذلك نافعهم عنده ، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين ، وما علموا أن الله لا يُخدع لأنه لا تخفى عليه خافية **قال ابن كثير** : النفاق هو إظهار الخير ، وإسرارُ الشر وهو أنواع : اعتقادي وهو الذي يخلّد صاحبه في النار ،وعملي وهو من أكبر الذنوب والأوزار ، لأن المنافق يخالف قولُه فعلَه ، وسرُّه علانيته ، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن بها نفاق بل كان خلافه[3] ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ أي وما يخدعون في الحقيقة إلا أنفسَهم لأن وبال فعلهم راجع عليهم ﴿وما يشعرون﴾ أي ولا يحُسّون بذلك ولا يفطنون إليه ، لتمادي غفلتهم ، وتكامل حماقتهم ﴿في قلوبهم مرضٌ فزادهم الله مرضاً﴾ أي في قلوبهم شك ونفاق فزادهم الله رجساً فوق رجسهم ، وضلالاً فوق ضلالهم ، والجملةُ دعائية **قال ابن أسلم** : هذا مرضٌ في الدين ، وليس مرضاً في الجسد ، وهو الشك الذي دخلهم في الإسلام فزادهم الله رجساً وشكاً[4] ﴿ولهم عذابٌ أليم بما كانوا يكذبون﴾ أي ولهم عذابٌ مؤلمٌ بسبب كذبهم في دعوى الإيمان ، واستهزائهم بآيات الرحمن . . ثم شرع تعالى في بيان قبائحهم ، وأحوالهم الشنيعة فقال ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض﴾ أي وإذا قال

(١) تفسير الفخر الرازي ٢/ ٦١ . (٢) تفسير البيضاوي ١/ ١١ . (٣) و(٤) مختصر تفسير ابن كثير ١/ ٣٣ .

أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

لهم بعض المؤمنين : لا تسعوا في الأرض بالإفساد بإثارة الفتن ، والكفر والصدِّ عن سبيل الله قال ابن مسعود : الفسادُ في الأرض هو الكفرُ ، والعملُ بالمعصية ، فمن عصى الله فقد أفسد في الأرض ﴿قالوا إنما نحنُ مصلحون﴾ أي ليس شأننا الإفسادُ أبداً،وإنمانحن أناسٌ مصلحون، نسعى للخير والصلاح فلا يصح مخاطبتنا بذلك قال البيضاوي : تصوَّروا الفساد بصورة الصلاح ، لما في قلوبهم من المرض فكانوا كمن قال الله فيهم ﴿أفمن زُيِّن له سوءُ عمله فرآه حسناً﴾ ولذلك ردَّ الله عليهم أبلغ ردٍّ بتصدير الجملة بحرفيْ التأكيد ﴿ألا﴾ المنبهة و﴿إنَّ﴾ المقررة ، وتعريف الخبر ، وتوسيط الفصل ، والاستدراك بعدم الشعور[1] فقال ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكنْ لا يشعرون﴾ أي ألاَ فانتبهوا أيها الناس ، إنهم هم المفسدون حقاً لا غيرهم ، ولكنْ لا يفطنون ولا يحُسون ، لانطماسِ نور الإيمان في قلوبهم ﴿وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس﴾ أي وإذا قيل للمنافقين : آمنوا إيماناً صادقاً لا يشوبه نفاقٌ ولا رياء ، كما آمن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، وأخلصوا في إيمانكم وطاعتكم لله ﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ الهمزة للإنكار مع السخرية والاستهزاء أي قالوا أنؤ من كإيمان هؤ لاء الجهلة أمثال « صهيب، وعمار ، وبلال » ناقصي العقل والتفكير ؟ ! قال البيضاوي : وإنما سفَّهوهم لاعتقادهم فسادَ رأيهم ، أو لتحقير شأنهم ، فإن أكثر المؤ منين كانوا فقراء ومنهم موالي كصهيب وبلال[2] ﴿ألا إنهم هم السفهاءُ ولكنْ لا يعلمون﴾ أي ألا إنهم هم السفهاء حقاً ، لأن من ركب متن الباطل كان سفيهاً بلا امتراء ، ولكن لا يعلمون بحالهم في الضلالة والجهل ، وذلك أبلغ في العمى ، والبعد عن الهدى . أكَّد ونَبَّه وحصر السفاهة فيهم ، ثم قال تعالى منبهاً إلى مصانعتهم ونفاقهم ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ أي وإذا رأوا المؤ منين وصادفوهم أظهروا لهم الإيمان والموالاة نفاقاً ومصانعة ﴿وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم﴾ أي وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤ سائهم وكبرائهم ، أهلِ الضلالِ والنفاق ﴿قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون﴾ أي قالوا لهم نحن على دينكم وعلى مثل ما أنتم عليه من الاعتقاد ، وإنما نستهزىء بالقوم ونسخر منهم بإظهار الإيمان ، قال تعالى رداً عليهم ﴿الله يستهزىء بهم﴾ أي الله يجازيهم على استهزائهم بالإمهال ثم بالنكال قال ابن عباس : يسخر بهم للنقمة منهم ويُملي لهم كقوله ﴿وأُملي لهم إن كيدي متين﴾ قال ابن كثير : هذا إخبار من الله أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ، ومعاقبهم عقوبة الخداع ، فأخرج الخبر عن الجزاء مخرج الخبر عن الفعل الذي استحقوا العقاب عليه ، فاللفظ متفق والمعنى مختلف[3]، وإليه وجهوا كل ما في القرآن من نظائر مثل ﴿وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها﴾ ومثل

(١) البيضاوي ١/ ١٢ . (٢) البيضاوي ١/ ١٢ . (٣) يسمى هذا النوع عند علماء البيان « المشاكلة » وهو أن تتفق الجملتان في اللفظ وتختلفا في المعنى كقوله :

قالوا اقترحْ شيئاً نُجِدْ لَك طَبخَه قلتُ : اطبخوا لي جبةً وقميصاً

﴿اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ﴾

﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه﴾ فالأول ظلم والثاني عدل ﴿وَيَمُدُّهُم في طُغْيانِهِم يَعْمَهُون﴾ أي ويزيدهم - بطريق الإمهال والترك - في ضلالهم وكفرهم يتخبطون ويترددون حيارى ، لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً لأن الله طبع على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، فلا يبصرون رشداً ولا يهتدون سبيلاً ﴿أولئكَ الّذينَ اشترَوُا الضَّلالَةَ بالهُدَى﴾ أي استبدلوا الكفر بالإيمان ، وأخذوا الضلالة ودفعوا ثمنها الهُدى ﴿فما ربحتْ تجارتُهم﴾ أي ما ربحت صفقتُهم في هذه المعاوضة والبيع ﴿وما كانوا مهتدين﴾ أي وما كانوا راشدين في صنيعهم ذلك ، لأنهم خسروا سعادة الدارين ، ثم ضرب تعالى مثلين وضّح فيهما خسارتهم الفادحة فقال ﴿مثلُهم كمثل الذي استوقد ناراً﴾ أي مثالهم في نفاقهم وحالهم العجيبة فيه كحال شخص أوقد ناراً ليستدفىء بها ويستضيء ، فما اتقدت حتى انطفأت ، وتركته في ظلام دامس وخوفٍ شديد ﴿فلما أضاءت ما حوله ذهبَ الله بنورهم﴾ أي فلما أنارتْ المكان الذي حوله فأبصر وأَمِن ، واستأنس بتلك النار المشعة المضيئة ذهب الله بنورهم أي أطفأها الله بالكلية ، فتلاشت النار وعُدم النور ﴿وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون﴾ أي وأبقاهم في ظلماتٍ كثيفة وخوف شديد ، يتخبطون فلا يهتدون قال ابن كثير : ضرب الله للمنافقين هذا المثل ، فشبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى ، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها ، وتأنس بها وأبصر ما عن يمينه وشماله . . فبينا هو كذلك إذْ طفئت ناره ، وصار في ظلام شديد ، لا يبصر ولا يهتدي ، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى ، واستحبابهم الغيَّ على الرشد ، وفي هذا المثل دلالةٌ على أنهم آمنوا ثم كفروا ، ولذلك ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات الشك والكفر والنفاق لا يهتدون إلى سبيل خير ، ولا يعرفون طريق النجاة[1] ﴿صمٌ﴾ أي هم كالصُمِّ لا يسمعون خيراً ﴿بكمٌ﴾ أي كالخرس لا يتكلمون بما ينفعهم ﴿عميٌ﴾ أي كالعمي لا يبصرون الهدى ولا يتبعون سبيله ﴿فهم لا يرجعون﴾ أي لا يرجعون عمّا هم فيه من الغي والضلال ، ثم ثنَّى تعالى بتمثيل آخر لهم زيادةً في الكشف والإيضاح فقال ﴿أو كصيّبٍ من السماء﴾ أي أو مثلهم في حيرتهم وترددهم كمثل قومٍ أصابهم مطر شديد ، أظلمت له الأرض ، وأرعدت له السماء ، مصحوبٍ بالبرق والرعد والصواعق ﴿فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ﴾ أي في ذلك السحاب ظلماتٌ داجية ، ورعدٌ قاصف ، وبرقٌ خاطف ﴿يجْعلونَ أصابِعَهمْ في آذانِهمْ من الصَّواعِقِ﴾ أي يضعون رءوس أصابعهم في آذانهم لدفع خطر الصواعق ، وذلك من فرط الدهشة والفزع كأنهم يظنون أن ذلك ينجيهم ﴿حَذَرَ المَوْتِ﴾ أي خشية الموت من تلك الصواعق المدمرة ﴿واللّهُ محيطٌ بالكافِرينَ﴾ جملة اعتراضية أي والله تعالى

(١) مختصر ابن كثير ١/ ٣٦ .